

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب

وهو الكتاب الثاني من ربيع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرصه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وفوض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتنَّ عليهم بتسهيل صعبه وعسيره، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيريه ونذيره، الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريه، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد: فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمره مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدین.

والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوت إلا حياة الجسد؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩] وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠] ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الكتاب، وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها.

ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الأفهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه، ثم بيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

بیان فضیلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثيبا عليه ومظهرا نعمته لديه: ﴿وَلَا تَكُن لِّعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمًا﴾ [القلم: ٤] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن^(١)، وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ثم قال ﷺ: «هُوَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَغْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(٢)، وقال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٣)، وقال ﷺ: «أَثْقَلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٤)، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حُسْنُ الْخُلُقِ».

ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «حُسْنُ الْخُلُقِ» ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «أَمَا تَفْقَهُ؟ هُوَ أَنْ لَا تَغْضَبَ»^(٥)، وقيل يا رسول الله ما الشؤم قال: «سُوءُ الْخُلُقِ»^(٦)، وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أوصني

(١) صحيح: حديث عائشة: كان خلقه القرآن تقدم وهو عند مسلم.

(٢) حديث «تأويل قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية هو أن تصل من قطعك». أخرجه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عباد وأنس بأسانيد حسان

(٣) صحيح: حديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحبة [أحمد: ٨٧٢٩، السلسلة الصحيحة: ٤٥].

(٤) صحيح: حديث «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن». أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء [الترمذي: ٢٠٠٣، وصححه الألباني].

(٥) مرسل ضعيف: حديث: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال «حسن الخلق..... الحديث». أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشيخير مرسلا [ضعيف الترغيب: ١٥٩٦].

(٦) حديث: ما الشؤم؟ قال «سوء الخلق». أخرجه أحمد من حديث عائشة «الشؤم سوء الخلق» [أحمد: ٢٤٠٢٦، ضعيف الجامع: ٣٤٢٦] ولأبي داود من حديث رافع بن مكيت «سوء الخلق شؤم» [أبو داود: ٥١٦٢، وضعفه الألباني] وكلاهما لا يصح.

فقال: «أَتَى اللّٰهَ حَيْثُمَا كُنْتُ» قال: زدني قال: «أَتْبَعُ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» قال: زدني قال: «خَالِقِي النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ»^(١)، وسئل عليه السلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: «خُلُقٌ حَسَنٌ» وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «مَا حَسَنَ اللّٰهُ خَلَقَ عَبْدٌ وَخَلَقَهُ فَيُطْعِمُهُ النَّارَ»^(٢)، وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «أَوَّلُ مَا يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ وَلَمَّا خُلِقَ اللّٰهُ الْإِيمَانَ قَالَ اللَّهُمَّ قَوِّنِي فَقَوَّاهُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَلَمَّا خُلِقَ اللّٰهُ الْكُفْرَ قَالَ اللَّهُمَّ قَوِّنِي فَقَوَّاهُ بِالْبُخْلِ وَسُوءِ الْخُلُقِ»^(٣)، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللّٰهَ اسْتَخْلَصَ هَذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ وَلَا يَصْلُحُ لِيَدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ أَلَا فَرِّئْتُوا دِينَكُمْ بِهِمَا»^(٤).

وقال عليه السلام: «حُسْنُ الْخُلُقِ خُلِقَ اللّٰهُ الْأَعْظَمُ»^(٥)، وقيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٦)، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعَوْا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ»^(٧)، وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم: «سُوءُ الْخُلُقِ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلَّ الْعَسَلَ»^(٨)، وعن جرير بن عبد الله قال: قال

(١) حديث: قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني قال: اتق الله حيثما كنت... الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح [الترمذي: ٣٤٤٤، وقال الألباني: حسن صحيح].

(٢) حديث «ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فتطعمه النار». تقدم في آداب الصحبة. حديث ضعيف وقد تقدم. (٣) حديث أبي الدرداء: «سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه يقول: أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق... الحديث». لم أقف له على أصل هكذا ولأبي داود والترمذي من حديث أبي الدرداء: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق». وقال غريب وقال في بعض طرقة حسن صحيح [الترمذي: ٣٦٣، وصححه الألباني في سنن الترمذي].

(٤) موضوع: حديث «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه... الحديث». أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين [ضعفه الألباني في ضعيف الجامع من حديث عمران بن حصين: ١٥٥١].

(٥) موضوع: حديث «حسن الخلق خلق الله الأعظم». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف [ضعيف الجامع: ٢٧١٥].

(٦) حسن صحيح: حديث: قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضلهم إيماناً؟ قال «أحسنهم خلقاً». أخرجه أبو داود [أبو داود: ١١٦٢، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر سنن أبي داود] والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ «أكمل المؤمنين» والطبراني من حديث أبي أمامة «أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً».

(٧) حسن: حديث «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق». أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات [صحیح الترغيب: ٢٦٦١].

(٨) ضعيف جداً: حديث «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضعفهما ابن جرير [السلسلة الضعيفة: ٣٧٠٩].

رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ أَمْرٌ قَدْ حَسَّنَ اللَّهُ خَلْقَكَ فَحَسِّنْ خُلُقَكَ»^(١)، وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً^(٢).

وعن أبي مسعود البدرى قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي»^(٣)، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثُر الدعاء فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصُّحَّةَ وَالْعَافِيَةَ وَحُسْنَ الْخُلُقِ»^(٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كَرَّمَ الْمُؤْمِنِ دِينَهُ، وَحَسَّبَهُ حُسْنَ خُلُقِهِ، وَمُرَّوَتْهُ عَقْلُهُ»^(٥)، وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعراب يسألون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خُلُقٌ حَسَنٌ»^(٦)، وقال ﷺ: «إِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»^(٧).

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ أَوْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ فَلَا تَعْتَدُوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ. تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنِ مَعَاصِي اللَّهِ أَوْ جِلْمٌ يَكْتَفُ بِهِ السَّفِيَةَ أَوْ خُلُقٌ يَعْيشُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ»^(٨)، وكان من دعائه صلى الله تعالى عليه وسلم في افتتاح الصلاة: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»^(٩)، وقال أنس: بينما نحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً إذ

(١) ضعيف: حديث «إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب وفيه ضعف [ضعيف الجامع: ٢٠٣٢].

(٢) حسن: حديث البراء: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن [صحيح الجامع: ٤٦٣٥].

(٣) صحيح: حديث أبي مسعود البدرى «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من رواية عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدرى وإنما هو ابن مسعود أي عبد الله، هكذا رواه ابن حبان في صحيحه [صحيح الجامع: ١٣٠٧] ورواه أحمد من حديث عائشة [أحمد: ٢٤٦٩٥].

(٤) ضعيف: حديث عبد الله بن عمرو «اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين [ضعيف الجامع: ١١٩١].

(٥) حديث أبي هريرة «كرم المرء دينه ومرءته عقله وحسن خلقه». أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهقي. قلت فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه [ضعيف الجامع: ٤١٦٨]. قال البيهقي وروى من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال إسناد صحيح.

(٦) حديث أسامة بن شريك: شهدت الأعراب يسألون رسول الله ﷺ ما خير ما أعطي العبد؟ قال «خلق حسن». أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحبة.

(٧) حديث «إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً». أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة «إن أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً» وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر «إن أقربكم مني مجلساً أحسنكم أخلاقاً» وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة.

(٨) حديث ابن عباس: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من الحديث». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف ورواه الطبراني في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة.

(٩) صحيح: حديث: «اللهم اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ الحديث». أخرجه مسلم من حديث علي [مسلم: ٧٧١].

قال: «إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ لَيَذِيبُ الْخَطِيئَةَ كَمَا تُذِيبُ الشَّمْسُ الْجَلِيدَ»^(١)، وقال عليه السلام: «مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ حُسْنُ الْخُلُقِ»^(٢)، وقال ﷺ: «الْيَمْنُ حُسْنُ الْخُلُقِ»^(٣)، وقال عليه السلام لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالْتَذْبِيرِ وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ»^(٤) وعن أنس قال: قالت أم حبيبة لرسول الله ﷺ: «أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لأيهما هي تكون؟ قال: «لأحْسَنِهِمَا خُلُقًا كَانَ عِنْدَهَا فِي الدُّنْيَا، يَا أُمَّ حَبِيبَةَ ذَهَبَ حُسْنُ الْخُلُقِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥)، وقال ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ الْمُسَدَّدَ لِيُدْرِكَ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ بِحُسْنِ خُلُقِهِ وَكَرَمِ مَرْئِيَّتِهِ»^(٦).

وفي رواية: «دَرَجَةُ الظُّمَّانِ فِي الْهَوَاجِرِ» وقال عبد الرحمن بن سمرة: كنا عند النبي ﷺ فقال: «إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى»^(٧).

وقال أنس: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَصَعِيفٌ فِي الْعِبَادَةِ»^(٨).

وروي: أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي ﷺ وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر رضي الله عنه: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا

(١) ضعيف: حديث أنس: «إن حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف [ضعيف الجامع: ١٨٥] ورواه الطبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً.

(٢) موضوع: حديث «من سعادة المرء حسن الخلق». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف [ضعيف الجامع: ٥٣٠٢].

(٣) ضعيف: حديث «اليمين حسن الخلق». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف [السلسلة الضعيفة: ٢٢٦٨].

(٤) ضعيف: حديث «يا أبا ذر لا عقل كالتذبير ولا حسب كحسب الخلق». أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي ذر [ابن ماجه: ٤٢١٨، ضعيف الترغيب: ١٥٩٥].

(٥) منكر: حديث أنس: قالت أم حبيبة يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان ... الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف [ضعيف الترغيب: ١٦٠٤].

(٦) صحيح: حديث «إن المسلم المسدد ليدرک درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم مرتبته». أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو وبالرواية الأولى ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة [أحمد: ٦٦١٠، صحيح الجامع: ١٩٤٩٠].

(٧) حديث عبد الرحمن بن سمرة إنني رأيت البارحة عجباً ... الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

(٨) ضعيف: حديث «إن العبد ليلبغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف في العبادة». أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصهبانيين من حديث أنس بإسناد جيد [ضعيف الترغيب: ١٥٩١].

رسول الله؟ فقال: «عَجِبْتُ لِهَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنُّ عِنْدِي لَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ تَبَادُرْنَ الْجِجَابَ» فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهينك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوات أنفسهن أتتهنني ولا تهين رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «إيها يا ابْنِ الْخَطَابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَبَجًا إِلَّا سَلَكَ فَبَجًا غَيْرَ فَجْكَ»^(١)، وقال ﷺ: «سُوءُ الْخُلُقِ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ وَسُوءُ الظَّنِّ خَطِيئَةٌ تُفَوِّحُ»^(٢).

وقال عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَكِ جَهَنَّمَ»^(٣).

الأثار: قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال. قال: فإذا كانت ثلاثاً؟ قال: الدين والمال والحياة، قال: فإذا كانت أربعاً؟ قال: الدين والمال والحياة وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمساً؟ قال: الدين والمال والحياة وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستاً؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ولله ولي ومن الشيطان بريء، وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه.

وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد.

وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال وهب بن منبه: مثل السيئ الخلق كمثل الفخارة المكسورة لا ترفع ولا تعاد طيناً. وقال الفضيل: لأن يصحبي فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبي عابد سيئ الخلق.

وصحب ابن المبارك رجلاً سيئ الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم يفارقه، وقال الجنيد: أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه، الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكتاني: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

(١) صحيح: حديث: إن عمر استأذن على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه.... الحديث. متفق عليه [البخاري: ٣٢٩٤، مسلم: ٢٣٩٧].

(٢) موضوع: حديث «سوء الخلق ذنب لا يغفر... الحديث». أخرجه الطبراني في الصغير من حديث عائشة: ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شرمته. وإسناده ضعيف [ضعيف الترغيب: ١٦١١].

(٣) ضعيف: حديث: «إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم». أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحدِيثين [ضعيف الترغيب: ١٥٩١].

وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بين الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] قيل فما الحسب؟ قال: أحسنكم خلقاً أفضلكم حسباً. وقال: لكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق.

وقال عطاء: ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى ﷺ، فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق.

بيات حقيقة حسن الخلق دسر الخلق

اعلم أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضرًا في ذهنه ولم يصفروا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب، وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى. وقال الواسطي: هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى.

وقال شاه الكرمانى: هو كف الأذى واحتمال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريبًا وفيما بينهم غريبًا. وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء.

وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس. وقال علي رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال. وقال الحسين بن منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى. فهذا وأمثاله كثير، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطًا بجميع الثمرات أيضًا. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة.

فنقول: الخُلُقُ والخَلْقُ عبارتان مستعملتان معًا، يقال: فلان حسن الخُلُقِ والخَلْقِ، أي حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلْقِ الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُقِ الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة.

ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر. ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]. فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين.

والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها

الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا. وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم.

فها هنا أربعة أمور: أحدها: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما. والثالث: المعرفة بهما. والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد.

وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل.

فالخلق إذاً عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهر مطلقًا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والقم والخد بل لا بد من حسن الجميع لتمام حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأما قوة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة؛ وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

فالعقل مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدي حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة

مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروّضًا مؤدّبًا وتارة يكون جموحًا. فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقًا. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوّة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة.

فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّرًا، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبثًا وخورًا. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرها، وإن مالت إلى النقصان تسمى جمودًا.

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة جبثًا وجريزة، ويسمى تفریطها بلهًا، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذا أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. ونعني بالحكمة جالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالعدل حالة للنفس وقوّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

ونعني بالشجاعة كون قوّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها واحجامها. ونعني بالعفة تأدّب قوّة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوّة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: تصدر الجريزة والمكر والخداع والدهاء.

ومن تفریطها: يصدر البله والغمارة والحمق والجنون، وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمرًا في شيء دون شيء. والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإثاره فاسدًا.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها وهو التهوّر. فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطاة والتكبر والعجب. وأما تفریطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشرة والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدي به ويتقرب إليه فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال (١).

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل. ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال. فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً، فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

بيانات قبول الأخلاق للتفسير بطريقتي الرياضة

اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير.

واستدل فيه بأمرين:

أحدهما: أن الخلق هو صورة الباطن كما أن الخلق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

(١) حديث «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». تقدم في آداب الصحبة.

والثاني : أنهم قالوا حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الرصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: «حَسِّنُوا أَخْلَاقَكُمْ»^(١)، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمسك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وسائر أجزاء الحيوانات.

وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان:

أحدهما : قوة الغريزة في أصل الجبلية وامتداده مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً، إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثاني : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضيًا والناس فيه على أربع مراتب:

الأولى : وهو الإنسان المغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليًا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضًا باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جدًّا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان.

والثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح بل زين له سوء عمله

(١) ضعيف : حديث «حسنوا أخلاقكم». أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ «يا معاذ حسن خلقك للناس» منقطع ورجاله ثقات [ضعيف الترفيب : ١٦٠٣].

فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يفرس في نفسه صفة الاعتياد للصالح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجهد وتشمير وحزم.

والثالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

والرابعة: أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس وبياهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب. وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب.

والأول من هؤلاء جاهل فقط.

والثاني: جاهل وضال.

والثالث: جاهل وضال وفاسق.

والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به: وهو قولهم إن الآدمي ما دام حيًا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيئات فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبله، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إمارة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً.

وبالجملة أن يكون في نفسه قويًا ومع قوته منقادًا للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَعْزَبْتُ كَمَا يَعْزَبُ الْبَشَرُ»^(١)، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرّ وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقًا فكان عليه السلام لا يخرج به

(١) صحيح: حديث «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَعْزَبْتُ كَمَا يَعْزَبُ الْبَشَرُ». أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة «إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ» [حديث أنس عند مسلم: ٢٦٠٣، حديث أبي هريرة عند مسلم: ٢٦٠١].

غضبه عن الحق^(١).

وقال تعالى: ﴿وَالْكٰفِرِيْنَ اَلْقَيْطُ وَالْعٰفِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾ [ال عمران: ١٣٤] ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش.

وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها، والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعاً، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثنى الله تعالى عليه فقال: ﴿وَالَّذِيْنَ اِذَا اَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا وَلَمْ يَقْتُرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوْلَةً اِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الاسراء: ٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود. قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ [الاعراف: ٣١] وقال في الغضب: ﴿اَشِدَّاءُ عَلٰى الْكٰفِرٰٓئِ رُحَمَآءٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷺ: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»^(٢)، وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَىٰ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين، وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكانه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهوّر.

والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأساً، ويذم إمساك المال رأساً، ولا يرخص له في شيء منه لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذراً

(١) صحيح: حديث: أنه كان يتكلم بين يديه بما يكره فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاً فكان الغضب لا يخرج عن الحق. أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال: لأن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ [البخاري: ٢٣٦٠، مسلم: ٢٣٥٧] ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه، [البخاري: ٦١٠٢، مسلم: ٢٣٢٠] ولهما من حديث عائشة: وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله [البخاري: ٣٥٦٠، مسلم: ٢٣٢٧]. ولمسلم: ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه... الحديث [مسلم: ٢٣٢٨].

(٢) موضوع: حديث «خير الأمور أوسطها». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبيد الله معضلاً [السلسلة الضعيفة: ٣٩٤٠].

في استبقاء بخله وغضبه وظن أنه القدر المرخص فيه. فإذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود. فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة. وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين.

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالماً بغير تعليم ومؤدباً بغير تأديب، كعيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكْتِسَاب فرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جريئاً، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالاعتیاد ومخالطة المتخلفين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهدًا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه.

وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس، ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَائِشِينَ﴾

(١) حديث «وجعلت قرّة عيني في الصلاة». أخرجه النسائي من حديث أنس وقد تقدم.

[البقرة: ٤٥] وقال ﷺ: «اغْبِدِ اللَّهَ فِي الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ففِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرٌ كَثِيرٌ»^(١)، ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل ﷺ عن السعادة فقال: «طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٢)، ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة.

وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات. وغاية هذه الأخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرّة العين.

ومصير العبادات لذيفة فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإننا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرّب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة.

وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحسّ بألمها لفرحه بالطيور وحر كاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط، وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبهج بنفسه وبقوته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقد كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرّة عينه وسبب افتخاره، بل لا حالة أحسن وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين، حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء. فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى

(١) حديث «اعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير». أخرجه الطبراني.

(٢) ضعيف: حديث: سئل عن السعادة فقال «طول العمر في عبادة الله». رواه القضاعي في مسند الشهاب وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف [السلسلة الصحيحة: ٢٤٠٧] والترمذي من حديث أبي بكره وصححه: أي الناس خير؟ قال (من طال عمره وحسن عمله) [الترمذي: ٢٣٢٩].

المقابح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معينًا له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذا قد عرفت بهذا قطعًا أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعًا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح. أعني النفس والبدن. فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية، حتى يصير كاتبًا بالطبع، فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبهه بالكاتب تكلفًا، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعًا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفًا، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنًا، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس.

وكذلك من أراد أن يصير سخيًا عفيف النفس حليمًا متواضعًا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفًا حتى يصير ذلك طبعًا له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعضيان يوم.

وهو معنى قولنا إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تنداعى قليلًا قليلًا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسًا فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصي يجز بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة.

وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئًا فشيئًا على

التدريج ، مثل نمو البدن وارتفاع القامة ، فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة. فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية.

وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين بصغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعدر عليه التوبة، إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبتها.

وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ مَكْنًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩]. ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه: إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء، كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمان ابيض القلب كله. وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلاً بالطبع وانفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل، وبين الرتبين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

بيانات تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها.

كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلتتخذ البدن مثلاً. فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً

وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفاتها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لا اعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً.

وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص، ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلّة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد، فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار.

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها.

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين يبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأمات قلوبهم. بل يبغي أن ينظر في مرض المريدين وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيتة من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته.

فإن كان المريدين مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالا فاضلاً عن قدر ضرورته أخذ منه وصرفه إلى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبية عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكديّة والسؤال، فإن عزة النفس والرئاسة لا تنكسر إلا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال

فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن رأى الغالب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحاً به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة.

فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطارها مراعاة يلتفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه.

ومن لطائف الرياضة إذا كان المرید لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم.

كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياضة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاه أخف منه، وكذلك سائر الصفات. وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهين الأطلعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوي بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه. وكذلك إذا رآه شائباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذلل نفسه وتنكسر شهوته... فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجوع. وإن رأى الغضب غالباً عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه.

كما حكي عن بعضهم أنه كان يعوّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتبه على ملاً من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل. وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج. وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة.

وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع. وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر؛ إذ خاف من تفرقه على الناس رعونة الجود والرياء بالبدل.

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض، فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب، وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك

المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ۗ إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت وإذا اتفق منه نقض عزم، فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه، كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة، وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة ففسد بها الرياضة بالكلية.

بيانات علامات أمراض القلب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أنّ كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش.

ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة. وخاصية النفس التي للآدمي، ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقوع والإبصار أو غيرها؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه.

وأصل الأشياء وموجدتها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء. فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات.

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ هِيَ أَرْغَىٰ لَكُمْ فَاتَّبِعُوا مَن يَشَاءُ مِنْهُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أنّ كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة.

فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أنّ القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أنّ من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه. وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح.

فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيياً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه. فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمنًا واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها. وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراءات. فهذه علامات أصول

الأمراض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل الماء وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبدراً فيكون التبذير أيضاً داءً، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داءً، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة.

وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقتك بتسيير الأفعال وتعميرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا المقام خاصة.

ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوّقة إلى أسبابها. فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم، أعني الوسط، حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مال إليه. ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَاِرْدَهَا كَانَ عَلَيَّ رِيكًا حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝٦٦ ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧١-٧٢] أي الذين كان قريهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه. ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١﴾ [الفاتحة: ٦] إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

فقد روي أنّ بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: قد قلت يا رسول الله شيبتي هود، فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام لقله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [هود: ١١٢] فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها. فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال

الصالحه إلا عن الأخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب. فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

بيات الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه. فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المرید مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبى. وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلاله قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهتمه لنفسه رضي الله عنه.

فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضاً قد عز فقل في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيوب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب.

فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبى؟ فكانت شهوة ذوي الدين أن ينتهبوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرّفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصّحاً عن ضعف الإيمان فإن الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداعة، فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً أو آلفاً من السنين. ثم إننا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها بل نشتغل

بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وأنت أيضًا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب. وأصل كل ذلك ضعف الإيمان. فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوقننا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساوئ. ولعل انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مDAHن ينثي عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو من الانتفاع بقول أعدائه فإن مساوئه لا بدّ وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس فكل ما رآه مذمومًا فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديتًا، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيئًا فاجتنبته. وهذا كله حيل من فقد شيئًا عارفاً ذكيًا بصيرًا بعيوب النفس مشفقًا ناصحًا في الدين فارغًا من تهذيب نفسه مشتغلًا بتهديب عباد الله تعالى ناصحًا لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصده.

بيات سراهه النقل من أرباب البصائر وسراهه السرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات

اعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين، فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق والإيمان على سبيل التلقي والتقليد لمن يستحق التقليد، فإن للإيمان درجة كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان وهو وراءه قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هي الطريق إلى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلاً وعد الله الحسنی.

والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنَّ الْهَوَىٰ سَوءٌ وَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۗ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَتَوْا بِرَبِّهِمْ الْغُفْرَانَ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [الحجرات: ٣] قيل نزع منها محبة الشهوات. وقال ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسٍ شَدَائِدٍ: مُؤْمِنٌ يَخْشَاهُ وَمُنَافِقٌ يَبْغِضُهُ وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٌ يُضِلُّهُ وَنَفْسٌ

تُتَارِغُهُ»^(١)، فبين أن النفس عدوٌّ منازع يجب عليه مجاهدتها.

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة.

وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره، وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد: «مَرْحَبًا بِكُمْ قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْفَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ» قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جِهَادُ النَّفْسِ»^(٢)، وقال ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣)، وقال ﷺ: «كُفَّ أَدَاكَ عَنِ نَفْسِكَ وَلَا تُتَابِعْ هَوَاهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِذْنًا تُخَاصِمُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُ بَعْضُكَ بَعْضًا إِلَّا أَنْ يُغْفِرَ اللَّهُ تَعَالَى وَيَسْتُرَهُ»^(٤)، وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نفسي مرة لي ومرة عليّ، وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس لا في الدنيا مع أبناء الملوك تنعمين ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأني بك بين الجنة والنار تحبين، يا نفس ألا تستحين وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإيرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى، البلوغ إلى الغايات وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربت بها بأيدي الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنبجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة وروحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان وكالملك المتنزه في البستان. وقال أيضًا: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيرًا في حب شهواتها؛ محصورًا في سجن هواها، مهوورًا مغلولًا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال

(١) حديث «المؤمن بين خمسة شدائد: مؤمن يحسده ومناقق يبغضه... الحديث». أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) حديث «مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصفر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه البيهقي في الزهد وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

(٣) صحيح: حديث: المجاهد من جاهد نفسه. أخرجه الترمذي في أثناء حديث وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد [الترمذي: ١٦٢١، صحيح الترغيب: ١٢١٨].

(٤) حديث «كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصية الله... الحديث». لم أجده بهذا السياق.

جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم. وقال أبو يحيى الوراق: من أَرْضَى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات. وقال وهيب بن الورد: ما زاد على الخبز فهو شهوة. وقال أيضًا: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوסף عليه السلام، بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبته وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته، سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له. إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً... فقال يوسف: كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال الجنيد: أُرقت ليلة فقمتم إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت: يا سيدي من غير موعد؟ فقال: بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك، فقلت: قد فعل فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها؛ فأقبل على نفسه فقال: اسمعي فقد أجبته بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعته، ثم انصرف وما عرفته.

وقال يزيد الرقاشي: إليك عني الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة. وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا. وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري فوالله ما أمنك إلا من كرامتك عليّ.

فإذا قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب. وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه.

وحاصل الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصرًا من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له في الآخرة بحال، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبه والتفكير فيه والانقطاع إليه، ولا قوة على ذلك إلا بالله، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط. فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة:

الأول: رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة فهو من

الصديقين. ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة.
الثاني: رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس، حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين.

والثالث: رجل اشتغل بالدنيا والدين، ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لا بد له من ورود النار إلا أنه ينجو منها سريعًا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه.

والرابع: رجل اشتغل بهما جميعًا، ولكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه. اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ.

وربما يقول القائل إن التمتع بالمباح مباح، فكيف يكون التمتع سبب البعد من الله عز وجل؟ وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة.

والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضًا من الدنيا وهو سبب البعد، وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا، وقد قال إبراهيم الخواص: كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانًا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشقققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها، فرأيت رجلًا مطروحًا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفني؟ فقال: من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء، فقلت: أرى لك حالًا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير؟ فقال: وأرى لك حالًا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا، فتركته ومضيت.

وقال السري: أنا منذ أربعين سنة تطالمني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعتها. فإذا لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التمتع بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه من الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة. ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلا ما لا يحل، وكذلك سائر الشهوات، لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام، فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعوِّدها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتمتع في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشدًا وبطءًا حتى تصير ثلمة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرحة بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿وَرَوَّضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُطْمَأٔنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا

الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا لِمَبِّ وَهَوِّ وَزِينَةٍ وَتَفَاخُرٍ بَيْنَكُمْ وَتَكَافُرٍ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴿[الحديد: ٢٠] الآية. وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة.

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثير عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر.

فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها، حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب. فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته. وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتخطأ عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه. فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عاداتها بالخلوة والعزلة أولاً ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثم عودت الشاء والذكر والدعاء ثانياً في الخلوة حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عز وجل عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المرید في البداية ثم يتنعم به في النهاية، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه إذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكأوه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فيوماً وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفاً، ثم يصير له طبعاً. فلو ردّ بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام.

وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً، وتمنع عن السرج الذي ألفتة بالسلاسل والقيود أولاً، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد. فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب، وتأديبها بأن تمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزيلها بالموت، إذ قيل له أحب ما أحببت فإنك مفارقة. فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه. وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أو دهرًا.

وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا. فلا بد من الصبر والمجاهدة.

ف عند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قاله علي رضي الله عنه.

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة، فينبغي أن يترك أولاً ما به فرحه، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه.

ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه. وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يجمع مادته مهما ظهر، فإن لكل وسوسة سبباً ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة. وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

بيات علامات حسن الخلق

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠] وقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: ١١٢] إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة.

ومن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال: «الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (١)، وقال عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» (٢)، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ

(١) صحيح: حديث «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه». أخرجه الشيخان من حديث أنس «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [البخاري: ١٣، مسلم: ٤٥].

(٢) صحيح: حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي هريرة [البخاري: ٦٠١٨، مسلم: ٤٧].

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(١)، وقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَتَّقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَضْمُنْ»^(٢)، وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق، فقال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا»^(٣)، وقال ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ صَمُوتًا وَقَوْرًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِنُ الْحِكْمَةَ»^(٤)، وقال ﷺ: «مَنْ سَرَتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٥)، وقال: «لَا يَجِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةٍ تُؤْذِيهِ»^(٦)، وقال عليه السلام: «لَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَزُورَ مُسْلِمًا»^(٧)، وقال ﷺ: «إِنَّمَا يَتَجَالَسُ الْمُتَجَالِسَانُ بِأَمَانَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَجِلُّ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى أَخِيهِ مَا يَكْرَهُهُ»^(٨).

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، برًا وصولًا وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًا حليمًا رقيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نامانًا ولا مغتابًا ولا عجولًا ولا حقودًا ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله ويبغض في الله فهذا هو حسن الخلق.

وسئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ هِمَّتُهُ فِي الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْعِيَادَةِ وَالْمَنَاقِقِ هِمَّتُهُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَالْبَهِيمَةِ»^(٩)، وقال حاتم الأصم: المؤمن مشغول بالفكر والعبر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمنافق راج كل أحد إلا الله، والمؤمن آمن من كل أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن

(١) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره». متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذي قبله.

(٢) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». متفق عليه أيضا من حديثهما وهو بعض الذي قبله.

(٣) حديث «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا». تقدم غير مرة.

(٤) ضعيف: حديث «إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فإنه يلقي الحكمة». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهدا في الدنيا وقلة منطق... الحديث» [ابن ماجه: ٤١٠١، مشكاة المصابيح: ٥٢٢٩].

(٥) صحيح: حديث «من سرته حسنته وساءتة سيئته فهو مؤمن». أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة [أحمد: ١١٥، مشكاة المصابيح: ٦٠٠٣].

(٦) حديث «لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظر يؤذيه». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلة مرسلا وقد تقدم.

(٧) صحيح: حديث «لا يحل لمسلم أن يورع مسلما». أخرجه الطبراني والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبخاري من حديث عمر وإسناده ضعيف [أبي داود: ٥٠٠٤، صحيح الترغيب: ٢٨٠٥].

(٨) حديث «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة... الحديث». تقدم في آداب الصحبة.

(٩) حديث: سئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال «إن المؤمن هتمته في الصلاة والصيام... الحديث». لم أجد له أصلا.

يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة، والمنافق يحب الخلطة والملا، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرئاسة فيفسد.

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء، ومن شكنا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس رضي الله عنه: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه، فقال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، ثم أمر بإعطائه^(١) ولما أكثرت قريش إيذاءه وضربه قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢)، قيل إن هذا يوم أئحد فلذلك أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاضه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له، فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأنني عبد الله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه فلم أؤد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة، وكان الداعي قد أراد تجربته، فلما بلغ منزله قال له: ليس له وجه، فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فردده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال: إن الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعى أجاب وإذا زجر انزجر.

(١) صحيح: حديث: كان ﷺ يمشي ومعه أنس فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية... الحديث. متفق عليه من حديث أنس [البخاري: ٥٨٠٩، مسلم: ١٠٥٧].

(٢) حديث «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». أخرجه ابن حبان والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل ابن سعد وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه حكاه ﷺ عن نبي من الأنبياء ضربه قومه [البخاري: ٣٤٧٧، مسلم: ١٧٩٢].

وروي عنه أيضاً اجتاز يوماً في سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفذ الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيل: ألا زبرتهم؟ فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أنّ علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد، إذ كانت أمه سوداء، وكان بنيسابور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حوائجه، فتقدم رجل رستاقى إلى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إليّ الماء فقام علي بن موسى وامتل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاقى وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب. قال: لا ينبغي له أن يهرب إنما الذنب لمن وضع مائه عند أمة سوداء.

وروي أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبد الله يأخذ منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهماً زائفاً، فلما نظر إليه التلميذ عرف أنه زائف فردّه عليه، فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت. هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وأخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغرّ بها مسلماً.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال: من قيس بن عاصم، قيل وما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوق علي ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

وقيل: إن أويستا القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوانه إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن عليًا كرم الله وجهه دعا غلامًا فلم يجبه فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعًا فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي، فقال: يا هذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة. وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقبل له: لم تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا. فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نورتهم ووجه تدبيرهم وتصميم

اهتمامهم

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب؛ وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى؛ وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعود التمتع، ولا يحجب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضائته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعمجت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض فصار يستحيي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب

عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم؛ ولا يلمطخ يده ولا ثوبه، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتمًا، ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالبهايم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرّر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوبًا من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مغالطة كل من يسمعه ما يرغب فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذابًا حسودًا سرورًا نمامًا لحوحًا ذا فضول وضحك وكيد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأديب الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكتشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيد جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغي أن يعاتب سرًا ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعقاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانًا، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن النوم نهارًا فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلًا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم؛ بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك تعود فعل القبيح.

ويعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعوّد أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يعوّد

التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وبالجملة؛ يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتشاءب بحضرة غيره ولا يستدير غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل.

ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللغام، ويمنع اليمين رأساً، صادقاً كان أو كاذباً، حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يتندى بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنّاً، وأن يقوم لمن فوّه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكسر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويبطل ذكائه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنّاً من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسمح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشوءه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممزّ لا دار مقرّة، وأن الآخرة دار مقرّة لا دار ممزّ، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقفاً مؤثراً ناجحاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في

الحجر. وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى أَلَف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس.

فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين.

قال عليه السلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنَّمَا أَبَوَاهُ يَهُودِيَّانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّانِهِ أَوْ يُمَجْسَانِيَّانِهِ» (١).

قال سهل بن عبد الله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك، الله معي الله ناظر إليّ الله شاهدي، فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعلك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية، فكننت أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت: إني لأخشى أن يتفرق عليّ همي ولكن شارطوا المعلم أنني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيت إلى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكننت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها، فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عني شيئاً. فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بأدابه، ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي، فأفطر بهند السحر على أوقية كل ليلة بحثاً من غير ملح ولا آدم، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة.

ثم خمسًا، ثم سبعا، ثم خمسًا وعشرين ليلة، فكننت على ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسبح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تستر وكننت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى.

قال أحمد: ما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى.

ببعض شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريب المرید نبي سلوك سبيل

الرياضة:

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدًا حرث الآخرة مشتاقًا إليها سالكا سبيلها مستهينًا بنعيم الدنيا ولذاتها، فإن من كانت عنده خרزة فرأى جوهرة نفيسة لم

(١) صحيح: حديث «كل مولود يولد على الفطرة... الحديث». متفق عليه من حديث أبي هريرة [البخاري:

يبقى له رغبة في الخرزة وقويت إرادته في بيعها بالجوهره، ومن ليس مريدًا حرث الآخرة ولا طالبًا للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر.

ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهره خير من الخرزة إلا أنه لا يدري من الجوهره إلا لفظها وأما حقيقتها فلا.

ومثل هذا المصدق إذا أُلّف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهره، فإذا المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الإرادة والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها، فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقتهم وليس في علماء الدين من ينبههم، فإن تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله، فإن طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببًا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه.

ومهما كان المطلوب محجوبًا والدليل مفقودًا والهوى غالبًا والطالب غافلًا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها، فينبغي أن يعلم أنّ له شروطًا لا بدّ من تقديمها في بداية الإرادة وله معتصم لا بدّ من التمسك به، وله حصن لا بدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أما الشروط التي لا بدّ من تقديمها في الإرادة، فهي رفع السدّ والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهْمًا لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: ٩]. والسد بين المرید وبين الحق أربعة: المال، الجاه، والتقليد، والمعصية.

وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل.

وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه.

وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله: «لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى، وأعظم معبود له الهوى، حتى إذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليدًا، فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدًا له وحجابًا إذ ليس من

شرط المرید الانتماء إلى مذهب معين أصلاً. وأما المعصية فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى ورد المظالم وإرضاء الخصوم، فإن من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، فإن ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أولاً ثم الترفي منها إلى أسرار معانيه، فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أولاً وآخرًا ثم الترفي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحًا للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المرید يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبيل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه لا محالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفيّر فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المرید بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ولا يبقي في متابعتة شيئًا ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: الخلوّة، والصمت، والجوع، والسهر.

وهذا تحصن من القواطع، فإن مقصود المرید إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه.

أما الجوع؛ فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رفته، ورقته مفتاح المكاشفة كما أنّ قساوته سبب الحجاب.

ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فإن مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التستري: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال، بإخماس البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس.

ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة. وسيأتي بيان وجه التدرج فيه في كتاب كسر الشهوتين.

وأما السهر؛ فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوره، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرّي والمرأة المجلّوة فيلوح فيه جمال الحق، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة. والسهر أيضًا نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب. فقد قيل في صفة الأبدال: إنّ أكلمهم

فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: أجمع رأي سبعين صديقاً على أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء.

وأما الصمت، فإنه تسهله العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح إليه. فالصمت يلحق العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى.

وأما حياة الخلوة؛ ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب. والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريمة كدرة قدرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفرغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص.

فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو أزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية.

أما ترى أن نداء رسول الله ﷺ بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ [المدثر: ١] ^(١).

فهذه الأربعة جنة وحسن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق. فإذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق. وإنما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبه على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل. وهي تلك الصفات؛ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة، وآثارها؛ أعني المال والجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوّف إلى المعاصي، فلا بد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلي الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرید، كما سبق ذكره، فإذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة؛ شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل

(١) صحيح: حديث: بدئ رسول الله ﷺ وهو مدثر فقيل له ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ متفق عليه من حديث جابر «جاوزت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني... الحديث» وفيه «فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي الماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا» قال فنزلت ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ وفي رواية فقلت «زملوني زملوني» ومن حديث عائشة فقالت «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروح [البخاري: ٤٩٢٤، مسلم: ١٦١].

يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردًا واحدًا.

وهو لباب الأوراد وثمرتها؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتًا إلى علائقه.

قال الشبلي للحصري: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني. وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد. فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكرًا من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلًا: الله الله.

أو: سبحان الله سبحان الله. أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحي عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبية عليه قد فرغ عن كل ما سواه، لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره، أي شيء كان، فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضًا نقصانًا، فليجتهد في دفع ذلك.

ومهما دفع الوسوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءت الوسوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً وكان معبودًا؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة. ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمرًا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك.

وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعًا أن الله تعالى منزه عنه، ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن لا يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ إِنَّكَ الْذِيكَ أَتَقَوْنَا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ نَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأمراء: ٢٠٠-٢٠١]. وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى عقله أو صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه، وأن يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحدًا، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده

إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه، وينبغي أن يتأقن الشيخ ويتلطف به فإن هذه مهالك الطريق ومواقع أخطارها، فكم من مرید اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم.

ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين وإن أخطأ كان من الهالكين. ولذلك قال ﷺ: «عليكم بدين العجائز»^(١) وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير، فإن الخطر في العدول عن ذلك كثير.

ولذلك قيل يجب على الشيخ أن يتفرس في المرید فإن لم يكن ذكياً فطناً متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر، بل يردّه إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرة تهم وتعمه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم، ثم المرید المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أوائل الكرامات.

ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلو.

قال بعض السياحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق إلى التحقيق؟ فقال أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق. وقال مرة: قلت له دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بد لي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعلة، قال: يا هذا أنتظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام؟ هذا ما لا يكون أبداً.

فإذا؛ منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلي له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا

(١) لا أصل له: حديث «عليكم بدين العجائز». قال ابن طاهر في كتاب التذكرة هذا اللفظ تداوله العامة ولم أفق له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبد الرحمن بن السلماني عن ابن عمرو عن النبي ﷺ «إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية والنسائي وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها انتهى وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم [السلسلة الضعيفة: ٥٣].

يحيط به الوصف أصلاً، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظماً ونصحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة، فتدعوه تلك اللذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع، فربما يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه وما لك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاماً منه وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محرکه كيد القبول، وإن كان محرکه هو الحق حرصاً على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول: الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده.

كالذي وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدفنه إذ وجده ضائعاً وتعين عليه ذلك شرعاً فجاء من أعانه عليه فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه، والغافلون موتى القلوب، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك، وهذا عزيز الوجود جداً فينبغي أن يكون المرید على حذر منه فإنه أعظم حبال الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فإن إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦] ثم بيّن أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذکور في الكتب السالفة فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنِيَ الصُّحُفِ الْأَوَّلِ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨-١٩] فهذا منهاج رياضة المرید وتربيته في التدریج إلى لقاء الله تعالى.

فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه، أعني به الشهوات المتعلقة بها، ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات، ثم مهمما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرئاسة، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً وتمسك من الدين بما فيه الرئاسة وغلب عليه الغرور.

فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بشمانية كتب إن شاء الله تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج، وكتاب في آفات اللسان، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه، وكتاب في ذم الكبر والعجب، وكتاب في مواقع الغرور.

وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والجنجيات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة

أمراض القلوب.

أما تفصيلها فإنه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى.

تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* * *